مجلة الحكمة للدراسات الفلسفية
Eissn :2602-5264 Issn : 2353-0499
المجلد 12 / العـدد: 02 (2024)، ص: 23-42

موقف "ألكسيس كاريل" من الحداثة الغربية

Alexis Carrel's stance on Western modernity

لخضر شَكير [1]، سمير حسنة [2]

[1] مخبر مجتمع، تربية، عمل جامعة تيزي وزو (الجزائر)،

lakhdarchakir10@gmail.com

[2] مخبر مجتمع، تربية، عمل جامعة تيزي وزو (الجزائر)،

hasna@ummoto.dz

تاريخ الاستلام: 2024/02/20 تاريخ القبول: 2024/04/22 تاريخ النشر: 2024/06/01

ملخص:

يُعد "ألكسيس كاريل" من الوجوه المشهورة في الطب والفكر على حد سواء؛ وذلك لإبداعه في ميدان الطب حيث حصل على جائزة نوبل من جهة، وكذا إدلاؤه بدلوه في مجال الفكر وفلسفة الطب على الخصوص. وتفترض هذه الدراسة اختلاف "كاريل" عن سابقيه من علماء وأطباء القرن التاسع عشر، ومن ثم اختلاف أفكاره عن أفكارهم. واعتمدت المنهج الوصفي التحليلي لأفكار ومواقف "كاريل"، ورؤيته النقدية للحداثة الغربية.

ومن نتائج هذه الورقة: تأكيد موقف "كاريل" الناقد للحضارة العصرية الغربية، بسبب من نشوئها بعيدا عن طبيعة الإنسان وطموحه؛ حيث ألقت كل الاهتمام بالجوانب المادية للإنسان، وأهملت في المقابل الجوانب غير المادية فيه، فنشأ الإنسان في اغتراب، وفقد أهم شيء طمح إليه منذ الأزل وهو السعادة، كذلك خالف "كاريل" ما كان سائدا في القرن التاسع عشر من النظرة المادية الاختزالية للكون والحياة، ومن ثم عملت هذه النظرة على تقدم العلوم المتعلقة بالمادة وأهملت جوانب إنسانية ضاربة في عمق الطبيعة البشرية، وهذا ما همّش علم الإنسان في

مقابل تقدم العلوم الفيزيوكيميائية، ما دعا "كاريل" إلى ضرورة الاهتمام بالعلوم الإنسانية، واعتبار العلوم المادية وسيلة لخدمتها لا غاية في ذاتها.

كلمات مفتاحية: ألكسيس كاريل، حداثة غربية، طب حديث، علم الإنسان، بيولوجيا.

Abstract:

Alexis Carrel is one of the most famous figures in both the medical and intellectual fields, known for his innovation in medicine with his Nobel Prize on one hand, and for his intellectual contributions in the field of medical philosophy in particular. This study assumes that Carrel distinguishes himself from his predecessors among scientists and physicians of the 19th century, as well as by the divergence of his ideas from theirs. It adopts a descriptive and analytical approach to Carrel's ideas and positions, as well as his critical view of Western modernity.

The results of this study confirm Carrel's critical stance towards modern Western civilization, attributed to its development outside of human nature and its aspirations. Indeed, all attention has been focused on the material aspects of man, neglecting the immaterial aspects. As a result, man has been estranged from himself and has lost the fundamental element he has always aspired to, happiness. Additionally, Carrel opposed the dominant materialistic and reductionist view of the cosmos and life in the 19th century, which favored the progress of material sciences at the expense of human aspects deeply rooted in human nature. This approach marginalized the humanities in relation to the progress of physico-chemical sciences. Thus, Carrel emphasized the need to focus on the humanities and to consider material sciences as a means to serve them rather than an end in themselves.

Keywords: Alexis Carrel, Western Modernity, Modern Medicine, Anthropology, Biology

***المؤلف المرسل:** لخضر شَكير

1. مقدمة

لقد كان من نتائج الانتقال من العصور الوسطى في أوروبا إلى العصر الحديث والحداثة بالمفهوم الغربي أن حصل تقدم واضح في شتى مظاهر الحياة، وتقدمت على إثر ذلك العلوم المختلفة، وبدأت تستقل عن الفلسفة شيئا فشيئا؛ فاستقلت الميكانيكا والفلك والفيزياء والكيمياء، ثم استقلت العلوم البيولوجية، تلتها العلوم الإنسانية من علم النفس وعلم الاجتماع، وانتهجت هذه العلوم المنهج التجريبي المُطبّق أساسا في الظواهر الجامدة، وتحسّنت الحياة في الغرب تحسنا ملحوظا في مجالات التقنية والوفرة والرفاه بشكل عام. أعطى هذا انطباعا مفاده أن السبيل إلى تحقيق الحياة الرغيدة، والتخلص من أوضاع العصور الوسطى لا يكون إلا بالاهتمام بعلوم الطبيعة والسيطرة عليها، والتركيز على جوانب الإنسان المادية، التي حملها العلم المعاصر على عاتقه، وأكدتها التكنولوجيا بما وفّرته من سهولة العيش ووسائل الرفاه. وفي المقابل بقي الإنسان الغربي يعاني اغترابا في نفسه وروحه وطموحه، ولم يُحقق كل ما يصبو إليه، وكان نتيجة للفراغ الذي يعيشه ضمن المدنية المتقدمة أن تهاوت لديه قيم الروح والنفس والدين. والسؤال هنا: هل أخطأت الحضارة الغربية في سيرها نحو التقدم؟ وما الذي يمكن فعله من أجل انقاذ ما يمكن إنقاذه؟ وما دور علوم الإنسان في الرقي بهذا الأخير في مدارج الإنسانية والسمو نحو السعادة العاجلة والآجلة؟ وما موقف "ألكسيس كاريل" من الحضارة العصرية وعلوم الإنسان والحياة؟

2. موقف "كاريل" من الحضارة العصرية عموما:

1.2 الحضارة العصرية لا تلائمنا

لا شك أن الحضارة الغربية المعاصرة قد أخذت بالإنسان إلى مطالع النفوذ من أقطار السماوات والأرض، ولم تحقق له ما كان يطمح إليه فقط، بل فاق ما وصل إليه كل التطلعات وكل الأحلام، فكان الواقع الذي أدركه رائبا عن الخيال!! ولكن ما إن وصل إلى المأمول وما فاق المأمول حتى ارتد خطوة إلى الوراء ليرى المدى الذي وصل إليه على مستوى عالم الشهادة والحياة والمادة، وما انحدر إليه من درك الشقاء والضياع في جانب الطمأنينة والسعادة والرفاه النفسي، فوجد بونا شاسعا لا يردمه الكم الهائل من الإنجاز المادي الذي حققه له العلم والتكنولوجيا الحديثة. والسؤال هنا: هل ما وصلنا إليه من تقدم ورفاه ماديين كان صالحا وملائما للإنسان الذي بذل النفس والنفيس في سبيلهما؟

يجيب "كاريل" بالنفي قائلا: "إن الحضارة العصرية تجد نفسها في موقف صعب لأنها لا تلائمنا. فقد أُنشئت دون أية معرفة بطبيعتنا الحقيقية؛ إذ إنها تولّدت من خيالات الاكتشافات العلمية، وشهوات الناس، وأوهامهم، ونظرياتهم ورغباتهم، وعلى الرغم من أنها أُنشئت بمجهوداتنا إلا أنها غيرُ صالحة بالنسبة لحجمنا وشكلنا". (كاريل، 2017، ص41) ومدلول كلامه أن الحضارة الراهنة -على الرغم من أنها أُسّست انطلاقنا من أفكارنا ومجهوداتنا- إلا أن نتائجها لم تكن في صالحنا؛ بسبب من انبنائها على طبيعة تخالف طبيعتنا، وهذه الطبيعة ذات صفة مادية صرف، تصلح لعالم المادة ولا تصلح لعالم البشر.

إن العلم الذي قدّسته الحداثة الغربية -والذي كان سببا لهذا التقدم الباهر على مستوى المادة والتقانة- أخذ بجماع لب الإنسان وفؤاده، وأصبح معبودا من دون الآلهة، وفي الوقت الذي كان على العلم أن يحررنا من أنفسنا ومن الطبيعة، فإذا به يجعلنا أسرى داخل قفصه، "وإذا كان للعلم من قيمة في حد ذاته، فذلك لأنه

يؤثر في كياننا بأجمعه، ويجعلنا نرتد إلى أنفسنا ونناقش أفعالنا ونجدد أخلاقنا، أما أن يكون العلم مدعاة للانشغال عن الإنسان بهذه الأشياء العارضة في حياتنا، وبهذه المظاهر التي تنأى بنا عن الذوق والخير والصحة، فذلك أكبر دليل على أننا لم نحتط للثورة التي أحدثناها بأيدينا، ولم نُعدّ العُدّة من أجل أن نوجد مثلا حيويا يحقق آمال الإنسان وأمانيه قبل أن يُرضي مطامعه وشهواته". (الديدي، 2015) وهكذا ففي الوقت الذي كنا ننتظر من العلم أن ينصرنا ويُبصّرنا ويحرسنا من مجاهل الطبيعة وعوائقها، أصبحنا نحن من ينصره ويحرسه ويدافع عنه. وفي الوقت الذي كان من المفروض أن يخدمنا العلم لنصل عن طريقة إلى السعادة والرفاه أصبحنا نحن من يخدمه !! وهنا انقلب دور العلم من خادم إلى مخدوم، وعاد علينا بالثبور والوبال. والنتيجة النهائية لهذا الوضع وهذا الموقف من "كاريل" أنْ يقترح ثورة جذرية على هذه النظم الأحادية، وهذا الوضع الغربي الراهن، ولو كان بثورة هدّامة تأتي على الأخضر واليابس. (كاريل، 2017، ص243)

وهذه نظرة لا يراها "كاريل" وحده، بل يراها كثير من المفكرين منهم الجزائري الربيع ميمون، (ميمون، 1980، ص ص 69،70) وكثير من العلماء وفلاسفة العلم في القرن العشرين، منهم على الخصوص فيلسوف العلم المشاغب "باول فيرابند"؛ الذي يرى أن العلم ليس نظاما معرفيا مقدسا، إنما ينمو ويزدهر وسط مجمل الأنظمة المعرفية البشرية الأخرى التي تحيط به، وتحركها عوامل الوعي التاريخي والحضاري للمجتمع عبر مراحل الزمن. ولذا فإن العلم لا يمتلك تلك السلطة العقلانية المطلقة التي تستطيع أن توجه باقي نشاطات المجتمع، لأنه نتاج الكثير من النشاطات الإنسانية والاجتماعية التي تتغلف بلاعقلانية وعيها التاريخي، وعلى هذا يجرد "فيرابند" العلم من سلطته المطلقة على المجتمع، ويدعو إلى تحرير المجتمع من سلطته بنفس قدرة الدعوة إلى تحرير المجتمع من سلطة الدين، الأمر الذي دعا بعضهم إلى أن يَعُدَّ "فيرابند" أولَ فيلسوف علم يوجه انتقاده إلى الحضارة الغربية،

انطلاقا من أغلى أيقونة طالما استخدمها الغربيون لإثبات تفوقهم الحضاري على باقي شعوب العالم، ألا وهي أيقونة العلم. (فيرابند، 2000، ص 6-9)

ويستغرب "فيرابند" من كثير من الفلاسفة الذين جعلوا من أنفسهم خداما - بل عبيدا- للعلم، في الوقت الذي كانوا فيه مبدعين أحرارا في شتى نظريات العلم، ولذلك فهو يقرر "أنه من المدهش حقا أن نرى الفلاسفة الذين كانوا ذات يوم مبدعين لنظريات جديدة إلى العالم [...] قد أصبحوا الآن أكثر الخدام طاعة للعلم، ورفعوا شعار: "الفلسفة خادمة العلم". (فيرابند، 2000، ص 55) وهذه النظرية التقديسية ازدادت جمودا وتحجرا على يد فلسفات العلم الوضعية الضد-تاريخية، التي ترفع العلم فوق التاريخ. (الخولي، ديسمبر 2000، ص439) وفي السياق نفسه يتحدث "مالك بن نبي" عن حدود العلم وكونه خادما للبشرية، إضافة إلى أن كثيرا من نتائجه قد عادت على البشرية بالخسران، نتيجة المآسي والحروب التي وصلنا إليها، بفضل استخدامنا السيء للعلم ونتائجه، وهكذا وجدنا آلهة العلم تتحطم بشكل مريع في القرن العشرين وما تلاه. (بن نبي، 2000، ص ص 80،81)

وينعى "كاريل" الحضارة العصرية، وما أنتجته من المآسي -على غرار ما أنتجته من مكتسبات- نتيجة لإهمال الحضارة العصرية لخصوصية الإنسان وبيئته الداخلية؛ النفسية والعقلية والروحية، ويضرب مثلا بالأعداد الهائلة من المجانين وفاقدي العقل في المجتمع الغربي في القرن العشرين، "وأن المَصَحّات في أوروبا وأمريكا مكتظة بالمجانين وضعاف العقول"، ويقترح "كاريل" لمعالجة الضعف الذي رآه على مستوى عقول الأوروبيين والأمريكيين وسائلَ كثيرةً منها: تغيير المحيط الثقافي والاجتماعي الذي يتربى فيه الأطفال، وعزل المتخلّفين عقليا عن الأسوياء والموهوبين وأصحاب القدرات، (إبراهيم، 2015) وربما راح "كاريل" إلى حلول لا تقلّ جنونا عن هؤلاء الأطفال المتخلّفين عقليا؛ (كاريل، 2017، ص ص 324،325) حينما يقترح القضاء على الفئات الضعيفة والمتخلّفة ذهنيا بالتخلّص منها جسديا، أو بما يسمّى

اليوم بـ "الموت الرحيم"؛ حيث إن هذه الفئات -على رأيه- تسبب عبءا ثقيلا على الدول والأمم الغربية المتحضّرة، ومن الحكمة التخلّص منها، في مقابل تكثير الفئات الأكثر ذكاءً وعبقرية.

يقترح "كاريل" للحد من مآسي الحضارة العصرية، أو على الأقل التخفيف من وطأتها كثيرا من الحلول، تتمحور حول ضرورة تغيير زاوية الرؤية إلى الحداثة والعصرنة، وضمّن هذه الحلول يندرج كتابه المشهور "الإنسان ذلك المجهول"؛ حيث وضعه في الأصل من أجل إطْلاع المثقف الغربي على الخصوص بكثير من المعلومات المتعلقة بعلوم الحياة والطب والبيولوجيا والعلوم المجاورة لها من جهة، ومن جهة أخرى أراد التأكيد على تهافت التقاليد الغربية الحديثة، خاصة ما تعلّق منها بدور العلم الحديث (الطبيعي على الخصوص، وأثر المنتوج الحضاري المادي)، ومن ثم أراد الدعوة إلى إقامة ثورة على مستوى التفكير أولا ثم العمل ثانيا، ودحض وتفنيد مسلّمات الثقافة الغربية في ميادين السياسة والاجتماع وغيرها، يقول "كاريل": "كذلك كُتب [أي كتابُه المشهور] لأولئك الذين يجدون في أنفسهم شجاعة كافية ليدركوا لا فقط إحداث تغييرات عقلية وسياسية واجتماعية، بل أيضا قلب الحضارة الصناعية وظهور فكرة أخرى للتقدم البشري". (كاريل، 2017، ص12) وهذا كله بعد النتائج الإيجابية في ميادين المادة، وما يقابلها من خسائر فادحة في ميادين الأدب والأخلاق والعقل والسياسة والاجتماع وغيرها.

ومن بين الحلول التي اقترحها: ضرورة المواءمة بين الحياة العصرية والإنسان؛ حيث حاول أن يؤكد ظاهرة التكيّف وأن يضعها في المرتبة الأولى من مظاهر الحيوية الإنسانية، وذلك طبيعي بالنسبة إلى عقليته التي ترى ضرورة المواءمة بين علوم العصر وبين حياة الإنسان في المجتمع. فالعلم الذي لا يُفيد في استناد الإنسان إليه في مشاكله المختلفة لا ينفع في شيء ولا يؤدي إلى نتيجة ذات قيمة. (amazon.fr، 2024) إضافة إلى ضرورة إعادة صياغة الإنسان في المجتمع الغربي، وذلك بالجمع

بين المادة والروح قائلا: "إن صحة العقل والحاسة الفعالة والنظام الأدبي والتطوّر الروحي تتساوى في أهمّيتها مع صحة الأبدان ومنع الأمراض المعدية". (كاريل، 2017، ص55) والعمل على تجميع المعارف المشتتة عن الإنسان، وتجميع معارف العلوم المختلفة بين يدي علماء متخصصين في علم الإنسان، ومن صفاتهم أنهم سيبذلون عمرهم، وسيضحّون من أجل إبراز علم كامل عن الإنسان، وإنشاء معاهد ومدارس مؤسسة على طبيعة الإنسان الحقيقية وتجمع في تعليمها بين الجسم والعقل، وتنشئة أشخاص أقوياء وأفراد صالحين.

2.2 موقف "كاريل" من المساواة والديمقراطية الغربية

انتقد "كاريل" فكرة المساواة والاشتراك في الحقوق بالتساوي بين الناس، وذلك انطلاقا من مسلمة الاختلاف والتباين في القدرات والكفاءات بين بني البشر، وكذا الاختلاف الطبيعي والعضوي بين الناس، ومن ثم فلا يليق بالبشرية التسوية بين العامل والخامل، ولا بين القوي والضعيف، والذكي والغبي، ولا بين الرجل والمرأة، قائلا: "من الواجب احترام مبدأ عدم تساوي الأفراد"، ثم يبرّر موقفه قائلا: "بدلا من أن نحاول تحقيق المساواة بين عدم المساواة العضوية والعقلية يجب علينا أن نوسّع دائرة هذه الاختلافات ونُنْشئ رجالا عظماء". (كاريل، 2017، ص304) وانطلاقا من هذه المسلّمة دائما انتقد فكرة الديمقراطية لأنها تُساوي بين الناس، والناس بطبيعتهم مختلفون؛ فمنهم الأمي، ومنهم صاحب القدرات العقلية، كما أن منهم أصحاب العقول الضعيفة. (إبراهيم، 2015) وكنتيجة لهذه المُسلّمة في الاختلاف بين أفراد الجنس الواحد قال بضرورة التفريق بين أفراد جنس مختلف بين الذكور والإناث؛ فقال بعدم المساواة بين الرجل والمرأة؛ وذلك لأن "الاختلافات الموجودة بين الرجل والمرأة لا تأتي من الشكل الخاص للأعضاء التناسلية، ومن وجود الرحم والحمل، أو من طريقة التعليم، إذ إنها ذات طبيعة أكثر أهمية من ذلك؛ إنها تنشأ من تكوين الأنسجة ذاتها، ومن تلقيح الجسم كله بمواد كيميائية محددة يُفرزها

المبيض [...] والحقيقة أن المرأة تختلف اختلافا كبيرا عن الرجل؛ فكل خلية من خلايا جسمها تحمل طابع جنسها .. والأمر نفسه صحيح بالنسبة لأعضائها، وفوق كل شيء بالنسبة لجهازها العصبي". (كاريل، 2017، ص102) ويظهر من استدلال "كاريل" في التفريق بين الرجل والمرأة أنه قد تأثر بالاختلاف الفيزيولوجي بين الأفراد، هذا الاختلاف يؤثر لا محالة في الاختلاف في الطبيعة والقدرات والإمكانات والنفسية والمزاج، وعلى ذلك فيجب وضع كل فرد في مكانه الصحيح، دون ادّعاء بالمساواة المطلقة بينهم، أو إقحام المرأة في ميادين لا تليق إلا بالرجل.

3. موقف "كاريل" من العلوم الحديثة:

1.3 موقفه من علوم الإنسان

إن موقف "ألكسيس كاريل" من العلوم الإنسانية هو فرع عن موقفه من موقع الإنسان في المنظومة الغربية الحديثة؛ هذا الموقع الذي ما فتئ يتقهقر عبر السنين، في مقابل صعود الانهمام بمنتجات العلوم الطبيعية والتكنولوجيات الحديثة. ولأن هدف التحضّر النهائي هو الإنسان وليس الآلة، (كاريل، 2017، ص243) أكد على ضرورة إعادة الاعتبار إلى الإنسان المُهمّش في التقاليد الغربية الحديثة، قائلا: "ولقد اعتبرتُ الإنسانَ ملخّص الملاحظات والتجارب في جميع الأوقات والبلدان". (كاريل، 2017، ص73) ويعزو تأخر علوم الإنسان من جهة وتقدم العلوم الطبيعية من جهة أخرى إلى أسباب كثيرة منها طبيعة الحياة السائدة عند أسلافنا؛ المتّسمة بالطبيعة العملية، وعدم كفاية الوقت للتفكير في قضايا الإنسان، إضافة إلى تعقد الظاهرة الإنسانية بشكل عام، وإلى طبيعة العقل البشري ذي الخصائص المعقدة مادية وغير مادية، وأن التغلب على هذه المشكلات الحقيقية من الصعوبة بمكان، وربما ظلت مشكلات مزمنة عل مدى الزمان، ولذلك فهو يستصعب علم الإنسان، جاعلا إياه أصعب العلوم طُرًّا.

وفي المقابل اقترح ملامح علم الإنسان المنشود، وأهمها: اعتبار وجوه النشاط الإنساني كلا متكاملا، ودراسة الإنسان بفحصه فحصا دقيقا في جانبه الداخلي، وذلك بالاستعانة بجميع الفنون المعروفة، وهذا لن يتم إلا بالانصراف عن الاهتمام بالعلوم الكونية والمادية، وفي المقابل علينا الاهتمام بالجانب الروحي والنفسي والعقلي والأدبي للإنسان، والعلاقات بين الناس. (كاريل، 2017، ص ص 254-256) كما يدعو إلى ضرورة الاختيار بين المعلومات غير المتجانسة التي تتعلق بالإنسان، وبيّن أن علوم الإنسان تحتاج إلى فحص شامل للإنسان؛ بحيث تحصل كل ناحية من الإنسان على قسط من الاهتمام، مع الحرص على عدم إعطاء أيَّ جزء أهمية مبالغا فيها، فالإنسان في جملته يدخل في اختصاص العلم. وأوضح أن علم الإنسان أهم بكثير من جميع العلوم الأخرى، وبيّن المصاعب في طريق هذا العلم، وأهمها: أن معلوماتنا عن الإنسان معلومات تقديرية، وأنّ صدق التجارب يحتاج إلى مجهود ضخم، قد يبلغ في مجال معيّن مرور جيل لكي نحكم على صدق تجاربنا. (إبراهيم، 2015) وهذا ما يؤكد مرة أخرى ضرورة الانتباه إلى تعقد الظاهرة الإنسانية، وأنها تختلف عن الظاهرة الجامدة اختلافا جذريا؛ لا في الدرجة فقط كما ادّعى بعض العلماء، (برنارد، 2005، ص62) بل الاختلاف يكمن في الطبيعة والخصائص الجوهرية.

ويظهر تأثر "كاريل" بـ "كلود برنار" في موضوع الآيديولوجيا والميتافيزيقا حينما ينفي كل الإحالات الميتافيزيقية التي تفسر الظاهرة الحية، بل ربما يذهب معه بعيدا حينما يلمز المذاهب الفلسفية والدينية -وهو المسيحي المتديّن، وربما المتصوّف في آخر المطاف- ويُعلي من قيمة الفكر الوضعي الذي ترسّم منذ "أوغست كونت"، يقول "كاريل": "ففي جميع الأزمان كانت الإنسانية تتأمل نفسها من خلال منظر ملوّن بالمبادئ والمعتقدات والأوهام، فيجب أن تُهمل هذه الأفكار الزائفة غير الصحيحة". (كاريل، 2017، ص47-48) كما يلمز البيولوجيين والمعلّمين والاقتصاديين وعلماء

الاجتماع الذين تستحوذ عليهم في كثير من الأحيان نزعات آيديولوجية غير علمية، وقد تتحوّل أفكارهم العلمية إلى معتقدات دوغمائية لا يرضى بها العلم الحديث والمعاصر.

2.3 موقفه من علوم الحياة

على غرار موقف "كاريل" من علوم الإنسان، ينظر إلى علوم الحياة نظرة مختلفة لنظرة القرن التاسع عشر، وينتقد من ثمة كثيرا من الأفكار والمسلّمات التي كانت سائدة آنذاك. ويندرج موقفه من علوم الحياة ضمن موقفه من الحضارة الحديثة عموما، لكنه يستخدم العلوم البيولوجية لتأكيد نقمه على الحداثة الغربية؛ (كاريل، 2017، ص281) حيث بيّنت علوم الحياة خلال القرن العشرين أسرارا كنا نجهلها عن الكائن الحي، حينما كنا نعتقد بساطته ومماثلته مع الكائن الجامد، ومن ثم طبّقنا عليه المنهج نفسه المُطبّق في الفيزياء والكيمياء، والنتيجة أننا عملنا ضد الطبيعة البشرية لما اختزلنا الكائن الحي في مجموعة عناصر كيميائية، أقل بكثير من العناصر التي تجود بها الطبيعة الصمّاء. ومن بين الأفكار المتعلقة بعلوم الحياة نذكر:

1.2.3 نقض المذهب الاختزالي في الفسيولوجيا

لقد كان من نتائج العلوم الطبيعية في القرن التاسع عشر أن حاول البيولوجيون نقل المنهج التجريبي المطبّق فيها إلى ميدان الأحياء، وإلى الإنسان على الخصوص، وذلك بالطريقة نفسها، انطلاقا من مسلّمة مفادها تماثل الظواهر الطبيعة؛ حية كانت وجامدة، وأسسوا لذلك ما يمكن تسميته بـ"المذهب الاختزالي" في البيولوجيا. ولا شك أن "كاريل" -باعتبار المناخ الثقافي والموروث الفكري الذي عاش في خضمّه (فرنسا القرن التاسع عشر وأمريكا القرن العشرين)- قد تأثر قليلا أو كثيرا بهذا المذهب؛ حيث أوضحت بعض نصوصه قوله بالمذهب الاختزالي في البيولوجيا، حينما يُصرّح قائلا: "إن الأساس المادي لجميع وجوه النشاط البدني

موقف "ألكسيس كاريل" من الحداثة الغربية

ينشأ من العالم الجامد، ثم لا يلبث أن يعود إليه إن عاجلا أو آجلا .. إنّ جسامنا مصنوعة من العناصر نفسها التي صُنعت منها الأشياء المُجرَّدة من الحياة، ومن ثم يجب ألا تستولي علينا الدهشة عندما نجد القوانين العادية للطبيعة والكيمياء تؤدي عملها بداخل أجسامنا مثلما توجد في العالم الكوني. ولما كنا أجزاء من العالم المادي فإن اختفاء هذه القوانين أمر لا يصح التفكير فيه". (كاريل، 2017، ص101)

ولكن "كاريل" لا يذهب بالمذهب الاختزالي إلى أقصاه كما كان حال فسيولوجيي القرن التاسع عشر، وإنما يستدرك على هذا الأصل وهذا التعميم مشيرا إلى خصوصية الكائن الحي والإنسان على الخصوص، قائلا: "إن قوانين الميكانيكا والطبيعة والكيمياء قابلة للتطبيق على المادة الجامدة، أما تطبيقها على الإنسان فجزئي فقط، ومن ثمّ وجب أن تُهمل تماما أوهامُ ميكانيكيّ القرن التاسع عشر" (كاريل، 2017، ص120) وعلى هذا فهو يؤمن بقوانين الميكانيكا، لكنه يحصر تطبيقها في الظواهر الجامدة فحسب، أما الظواهر الحية فحالها من الغموض والتعقيد يجعلها بعيدة المنال من قوانين الفيزياء والكيمياء. وفي الوقت ذاته يُخطّئ علماء وفيسيولوجيي القرن التاسع عشر؛ هؤلاء الذين أغرقوا في القول بالتماثل بين الظاهر، وزعموا خضوعها (حية وجامدة) للمنهج الفيزيوكيميائي، قائلا: "إن علماء الفسيولوجيا في القرن التاسع عشر وتلاميذهم ارتكبوا مثل هذا الخطإ؛ حينما حاولوا أن يختزلوا الإنسان اختزالا تاما إلى كيمياء مادية. ويُعزى هذا التعميم الذي لا مبرر له لنتائج التجارب المعقولة إلى المغالاة في التخصص .. يجب ألا يُساء استعمالُ الآراء، وإنما يجب أن توضع في مرتبتها الخاصة في سُلَّم العلوم". (كاريل، 2017، ص47) ومن ثم فهو يُنكر هذا الاختزال، ويُنكر الطابع الميكانيكي في تفسير الظاهرة الحية، الذي كان سائدا في عصر النهضة واستمر ثلاثمائة عام، وليس من السهل التخلص من وهم التماثل هذا؛ بسبب من إعطاء الأولية للمادة وعقلية التكميم، والفصل بين العقل والجسم، وإعطاء أهمية باهتة للعقل، في الوقت الذي يؤكد فيه

خصوصية وتعقيد الكائن الحي، حينما يُصرّح في موضع آخر قائلا: "يبدو الجسم شيئا معقدا كأكثر ما يكون التعقيد؛ إنه اتحاد هائل لجميع مختلف أنواع الخلايا، التي يتكون كل نوع منها من ملايين الأفراد"، (كاريل، 2017، ص ص114-326) وهذا التعقيد سببه طبيعة الكائن الحي (والإنسان على الخصوص)؛ إنه يُمثل مادة من جهة، ومادة حية من جهة ثانية، ومركز نشاط عقلي من جهة ثالثة. وبالتالي فإن "كاريل" ينفي أيَّ تماثل بين الآلة الجامدة والجسم البشري؛ لأنهما نظامان لا يتشابهان على الإطلاق؛ فالآلة أجزاؤها مفككة ثم رُكّبت على نظام معيّن، في حين أن الجسم العضوي مُركّب غير قابل للتفكيك. (كاريل، 2017، ص ص117-118) وهذه النظرة الاختزالية من قبل الفيزيولوجيين وعلماء الطب في القرن التاسع عشر جعلتهم ينشغلون بالنواحي العضوية للكائن الحي والأخلاط والعناصر المادية، لكنهم في المقابل ذهلوا عما وراء المادة لتكوين الإنسان؛ عقليا وروحيا وأخلاقيا ودينيا واجتماعيا، (كاريل، 2017، ص ص288-289) وهو ما سيُسْفر عن نتائج باهرة في المجال العضوي، ونتائج مُخجلة في الجوانب غير العضوية. (برغسون، 1981، ص 151)

وهكذا يذهب "كاريل" إلى نوع من التوسط بين القائلين بالمذهب الروحي في علم المادة الحية، وبين المذهب الاختزالي، قائلا: "لقد زعم علماء الحياة أن الجسم الإنساني كان آلة يتم التناسق بين أعضائها بواسطة عامل ليس طبيعيا، كيميائيا .. وتبعا لرأيهم فإن العمليات المسؤولة عن وحدة الكائن الحي كانت محكومة بمبدإ روحي مستقل [...] ومن الواضح أن المبدأ الروحي المستقل ليس فكرة عملية، إنه مجرّد إنشاء عقلي بحت [...] أما الميكانيكيون فإنهم يعتقدون أن جميع وجوه النشاط الفسيولوجي والنفسي يمكن أن تُفسَّر بقوانين الطبيعة والكيمياء والميكانيكا"، (كاريل، 2017، ص48) وهذا الرأي كان قد سبق إليه مواطنه "كلود برنار". (برنارد، 2005، ص ص70-71) ويظهر أن الداعي إلى هذا الموقف التوفيقي بين مادية

الظاهرة الحية وخصوصيتها، هو طبيعة المادة الحية في حد ذاتها؛ حيث تقع في برزخ بين موضوعين شديدي الاختلاف، ومن ثم استدعى المنطق التوسط في النظر إليها، بين كونها (مادة) بسيطة، و(مادة حية) معقدة من جهة أخرى.

2.2.3 التعميم ومشكلة الفردانية

من قواعد العلم التجريبي المعاصر اعتماده على الاستقراء؛ الذي يعني الانتقال من قضايا جزئية إلى قضايا كلية عامة، وهذا المنهج يعتمد على عيّنات قليلة قابلة للتجريب، والنتائج المُحصّل عليها تُعمم على سائر الظواهر المتماثلة. والسبب في هذا التعميم هو اعتقاد خضوع كل الظواهر إلى قانون طبيعي صارم لا يتخلف ولا ينتكس، وهو ما يُسمّيه العلم المعاصر بـ "الحتمية"، التي تعني (صليبا، 1982، ص ص443-444) المبدأ الذي يفيد عمومية القوانين الطبيعية وثبوتها واطّرادها فلا تخلّف ولا مصادفة (مُجمّع اللغة العربية بجمهورية مصر العربية، 1983، ص67). أو هي: "جملة الشروط التي تُعيّن حدوث ظاهرة من الظواهر" (وهبة و و آخرون، 1971، ص163). والسؤال هنا: هل تخضع الظواهر الحية -ومنها الإنسان- إلى الحتمية المطلقة في الكون؟ أم أنّ الظواهر الحية مستثناة من هذا الخضوع؟ وهل الإنسان مماثل للطبيعة، وهل هو مماثل للحيوان، حتى نُطبّق عليه قانون الحتمية؟

إن كثيرا من علماء الطبيعة الجامدة يذهبون إلى القول بهذه الحتمية الصارمة، بل وكثيرا من علماء الفيزيولوجيا والطب يذهبون إلى هذا المذهب، ومنهم على الخصوص مؤسس الطب التجريبي المعاصر "كلود برنار"، الذي يُصرّح في أحد نصوصه قائلا: "والاستدلال هو هو على الدوام، سواء في العلوم التي تبحث في الكائنات الحية أو العلوم التي تتناول الأجسام الجامدة" (برنارد، 2005، ص73). ولكن "كاريل" لا يذهب إلى مثل هذه الحتمية الصارمة في المادة الحية، ومن ثم فهو لا يرى هذا التماثل المطلق بين المادة الجامدة والمادة الحية، ولا التماثل بين الإنسان والحيوان، ولا حتى بين بين البشر فيما بينهم.

ومن النصوص المهمة لـ "كاريل" التي تنفي التماثل بين الإنسان والحيوان قوله: "من سوء الحظ أنّ أوجه الشبه بين الفئران والأرانب وبين الإنسان بعيدة جدا، ومن ثمّ فإنه من الخطر أن نطبّق مثلا على الأطفال -الذين يختلف تكوينُهم اختلافا عظيما عن تكوين الأرانب والفئران- نتائجَ أبحاث أُجريتْ على هذه الحيوانات. وعلاوة على ذلك فإن الحالات العقلية التي تقترن بالتغييرات التشريحية والوظائفية في العظام والأنسجة والأخلاط تحت تأثير الطعام وطريقة الحياة لا يمكن فحصُها فحصا مُتْقَنا على مثل هذه الأنواع المنحطّة من الحيوانات". ولكنه من جهة أخرى يُقرّ استخدام نتائج التجارب على الحيوانات الأعلى منها قائلا: "بيد أنّ الإنسانَ يستطيع بملاحظة حيوانات أكثر ذكاءً كالقردة والكلاب أن يحصل على معلومات أكثر تفصيلا وأهمية" (كاريل، 2017، ص66). ولذلك فإن كل التجارب المُطبّقة على الحيوان وتعميمها على الإنسان فإنها تُعطي نتائج مخادعة، ولا يمكن اعتمادها في التقنين للظاهرة الإنسانية.

ويعتقد "كاريل" أن الإنسان لا يمكن إخضاعه للقياس على غرار إخضاع المادة الجامدة، حينما يُصرّح قائلا: "فالأشياء غير القابلة للقياس في الإنسان أكثر أهمية من تلك التي يمكن قياسها"، (كاريل، 2017، ص287) ومن ثم لا يمكن للأحكام الصادرة على المادة الجامدة ولا حتى الصادرة في حق الحيوان أن تُعمم على الإنسان؛ نظرا لتعقد الظاهرة الإنسانية، وعدم قابليتها للتكميم والقياس، ما يجعل أيّ محاولة للمماثلة والمشابهة بين ظواهر مختلفة في الطبيعة محاولة عابثة، ونتائجها أقرب إلى الزيف منها إلى الحقيقة، ما يُنتج سوء فهم لطبيعة الإنسان ذي التركيبة المعقدة، ومن ثم سوء التشخيص لحال الإنسان مرضاً وصحة، والنتيجة الحتمية أن يعجز الأطباء من ذوي النظرة الاختزالية عن علاج الحالات المرضية الإنسانية.

وحتى داخل الظاهرة الإنسانية في ذاتها، فإن "كاريل" ينفي التماثل بين الجسم الحي والجسم الميت، ويدعو إلى التجريب على الحي، لأن الميت مادة جامدة، وهي

موقف "ألكسيس كاريل" من الحداثة الغربية

تختلف عن المادة الحية اختلافا في الطبيعة لا في الدرجة فحسب، يقول: "ليس في استطاعة الإنسان أن يفهم الكائن الحي بدراسة جسم ميّت؛ لأن أنسجة الجثة الهامدة تكون قد جُرِّدتْ من الدم الذي يدور فيها كذا من وظائفها. وحقيقة الأمر أن العضو الذي يُفصل من وسيطه المُغذّي يُعتبر لا وجود له على الإطلاق. (كاريل، 2017، ص ص83-84) ويبرر ذلك بأن الكائن الحي يعيش في وسط حيوي وهو الدم؛ الذي يُعطي الحيوية لسائر أعضاء الجسم، وأن فقدان الجسم للدم هو فقدانه للحياة، ومن ثم صيرورته إلى مادة جامدة، وقد سبق تأكيد عدم التماثل بين المادة الجامدة والمادة الحية. والنتيجة أنه لكي نفهم العمليات الفيزيولوجية كما هي حقيقة في الكائن الحي لا بد من تشريح الحي، وملاحظة العمليات العضوية كما هي، والتشريح على الميت فحسب يعطي نتائج مُضَلّلة، ومن الخير التخلص منها.

كما لا يقول بالتماثل المطلق بين أفراد الجنس الواحد، بل يقرّ -خلاف ذلك- بوجود التفرّد والاختلاف، بل ربما يكون الاختلاف هو الأصل وليس التماثل، يقول: "إنّ فرديتنا تتأصّل جذورها في أعماق ذاتنا". (كاريل، 2017، ص251) ومن ثمّ فإن على الطبيب الحاذق أن يكون على وعي بطبيعة الإنسان المتفردة، المختلفة أفرادُه بعضها عن بعض؛ ولذلك فإنّ "الأطباء لن يحققوا واجبهم فعلا إلا إذا اكتشفوا الصفات الخاصة بكل مريض؛ لأن نجاحهم لا يعتمد فقط على معلوماتهم، ولكن أيضا على قدرتهم على فهم الصفات الخاصة التي تجعل من كل إنسان فردا". (كاريل، 2017، ص260) وحتى يُحقق الطبيب الفاطن هذه الغاية لا بد عليه من التعرف الكافي على تفاصيل الحياة البشرية الداخلية، الضاربة في عمق الاختلاف والتفرّد، ومن ثمّ يُمكنه التعامل مع أشخاص الناس كل على حسب حالته وخصوصيته، والعلاج يكون من ثمّ مختلفا بين أشخاص قد تتماثل أعراض أمراضهم وتختلف سبل علاجهم وأدويتهم، وهذا مكمن الصعوبة في الطب؛ وقايةً وعلاجا.

ومن نتائج ذهول الطب الحديث والمعاصر عن هذه الخصوصية والتفرد للظاهرة الإنسانية أن وقع الأطباء في مطبات من مثل التعميم والنظرة التجزيئية للجسم البشري، وكذا طغيان الجانب النظري على الجانب التجريبي وعدم مراعاة الخصوصية، والإغراق في التخصص والذهول عن التخصصات الأخرى. (كاريل، 2017، ص229) يقول "كاريل": "ويرجع عدم نجاح الطبيب إلى أنه يعيش في دنيا الخيال .. فبدلا من أن يرى مرضاه فإنه يرى الأمراض الموصوفة في كتبه الطبية، ولهذا فهو ضحية إيمانه بالكونيات. وعلاوة على ذلك فإنه يخلط بين آراء مبدإ العلم والتكنولوجيا ووسيلتهما .. إنه لا يفهم بدرجة كافية أنّ الفرد كُلٌّ، وأن الوظائف التنسيقية تمتد إلى جميع الأجهزة العضوية، وأن التقسيم التشريحي صناعي بحت .. ولقد كان تقسيم الجسم -إلى أجزاء صغيرة لها قيمتها- مُهمّا حتى الآن بالنسبة إليه، ولكنها ميزة خطرة باهظة الثمن بالنسبة للمريض، وأخيرا للطبيب أيضا". (كاريل، 2017، ص258) وهكذا يقع الطب التجريبي -الذي يُفترض أن يكون تجريبيا بأتم معنى الكلمة- في مزالق النظرة الكونية، التي تعتقد بالتماثل الشامل بين الظواهر، ومن ثمّ يكفي الاطّلاع على ما كتبه العلماء السابقون في موضوع من مواضيع الطب أو مرض من الأمراض حتى يكون صالحا لتطبيقه على أشخاص مختلفين تماما زمانا ومكانا وظروفا، ومختلفين في التكوين العضوي الفيزيولوجي لكل فرد منهم. ولعلّ الزمن اليوم قد حان للتخلص من هاته النظرة التعميمية، والذهاب إلى عمق التفرد والخصوصية، فيُصبح كل إنسان ظاهرة قائمة بذاتها، تحتاج إلى طريقة خاصة في الوقاية والعلاج.

4. الصحة ومشكلة العلاج:

1.4 الصحة الطبيعية والصحة الصناعية

مما امتازت به الحضارة العصرية -خاصة بعد التقدم الحاصل في علوم المادة الجامدة أولا، ثم علوم المادة الحية؛ وما صاحبها من الإنجازات الباهرة في ميدان

التطبيب والعلاج، خاصة بعد تقدم علم الكيمياء، والكيمياء الحيوية على الخصوص- أنْ تقدّمَ الطب العلمي الحديث، المبني على المنهج التجريبي المُطبّق أساسا في العلوم الفيزيائية- الكيميائية، وتقدمت على إثره العلوم الصيدلية، وأصبح لها من الاهتمام ما لصحة الإنسان بحد ذاته، وأصبح الذهاب إلى الطبيب واقتناء الدواء الكيميائي من علامات التحضر، وربما زاد الأمر عن حده حين تُحصى الكميات الرهيبة من الأدوية الكيميائية المستهلكة سنويا في دولة ما، لتُعَدَّ ضمن لائحة الدول المتقدمة !! لكن السؤال هنا مُلحّ للغاية: هل هذا التداوي غير الطبيعي يُعد علامة على التقدم أم علامة على التقهقر؟ خاصة بعد التجارب المريرة التي تؤكد خطر وضرر العلاج بالأدوية الكيماوية، والأضرار الجانبية الخطيرة التي يُخلّفها؟ هذا ما دعا كثيرا من العلماء والأطباء المعاصرين إلى إعادة النظرة في المنظومة الصحية المعاصرة، ولفتوا النظر إلى ضرورة العلاج بالدواء الطبيعي. وهذا "كاريل" يُعد من المُبكّرين الذين ناصروا هذا الاتجاه الأخير؛ حينما صرّح قائلا: "يوجد نوعان من الصحة كما نعلم؛ صحة طبيعية، وصحة صناعية. ولقد أمدّ الطب العلمي الإنسانَ بالصحة الصناعية والوقاية من معظم الأمراض المعدية .. وهي هدية رائعة، ولكن الإنسان غير قانع بالصحة التي لا يوجد فيها المرض وتعتمد على أغذية خاصة وكيميائيات ومستحضرات الأندوكرين والفيتامينات والفحص الطبي الموسمي وعناية المستشفيات والأطباء والممرضات باهظة التكاليف .. إنه بحاجة إلى الصحة الطبيعية التي تُستمدّ من مقاومة الأمراض المعدية وأمراض الانحلال وتوازن جهازه العصبي". (كاريل، 2017، ص318) ويدعو في الوقت نفسه إلى ضرورة العيش دون التفكير في المرض والدواء؛ لأن التكفير في المرض والدواء والذهاب الموسمي للفحص والعلاج هو في ذاته مرض نفسي يحتاج إلى علاج.

إن التفكير في منظومة صحية مختلفة تماما عن المنظومة الصحية الحالية لا يمكن أن يكون مقبولا لدى الرأي العام، ولا حتى لدى الأطباء والمعالجين التقليديين؛

وذلك لمعارضة هذا الاتجاه لما سار عليه الناس -ومنهم العلماء والأطباء- منذ قرون من الزمن، يقول "كاريل": "ولسوف يلقى هذا الرأي الخاص بالصحة الطبيعية أكبر المعارضة؛ لأنه يتعارض مع عادات تفكيرنا. إن الاتجاه الحالي للطب هو نموّ الصحة الصناعية ونمو نوع من الفسيولوجيا الموجّهة. (كاريل، 2017، ص ص318-319) والمقصود أن الاتجاه المعاصر في التداوي والعلاج هو المحاولة الدؤوبة لفرض نموذج واحد ومنظومة واحدة في التطبيب والعلاج، هي المنظومة الصحية الحديثة والمعاصرة، ذات الترسانة الضخمة من مراكز الأبحاث والجامعات ومخابر البحث في الطب والصيدلة، ومن ورائها ترسانة عظيمة من الدعم المادي والأدبي والسياسي والنظام الرأسمالي بشكل عام، والهدف من كل ذلك ترسيم قواعد طبية تخدم آيديولوجيا الليبيرالية، ومن ثم تحارب أي تفكير خارج السرب، أو التفكير في منظومة صحية موازية، يمكن أن تصبح سائدة يوما ما.

2.4 الصحة الطبيعية ودور الغذاء والصيام وتغيير طريقة الحياة

من وسائل الصحة الطبيعية تغيير نمط الحياة واتباع نظام غذائي طبيعي، وكذلك العلاج بالصيام ذي الفوائد الصحية الكبيرة، يقول "كاريل" في الصيام: "لقد فرضت جميع الأديان الصوم لما له من فوائد جمة؛ لأن الحرمان من الطعام يثير أولا الشعور بالجوع، كما أنه يثير أحيانا بعض التنبيه العصبي [...] إن الصيام يُنَقّي أسنجَتَنا ويُعدّلها كثيرا". (كاريل، 2017، ص340) وهنا لا يتأثر بالمذهب الديني المسيحي الذي ينتمي إليه فحسب؛ والذي يدعو طائفته إلى الصيام كواجب ديني بحت، بل ينطلق من عمله وتجاربه كطبيب في الأصل، وكمجرّب لكثير من العلاجات الحديثة التي لم تُعط النتائج المرغوبة. أما عن دور الغذاء في الصحة والعافية فإنه يُركّز على دور الغذاء الصحي الطبيعي في تقوية المناعة واسترداد المقاومة الذاتية للعضوية، قائلا: "المناعة الطبيعية لا تُستمد من تكوين أسلافنا فقط، فقد تُكتسب أيضا نتيجة لطريقة الإنسان في حياته والتغذية [...] ومن ثم يجب علينا أن نستوثق

مما إذا كان في الإمكان تزويد الإنسان بالمناعة الطبيعية ضد المرض، بتهيئة أحوال معينة للحياة. إذ إنّ حقن الأفراد بالمصل المضاد لكل مرض، وفحص الشعب كله فحصا طبيا متكررا وإنشاء مستشفيات ضخمة، لهي وسائل باهظة التكاليف، فضلا عن أنها ليست وسائل فعالة لمنع الأمراض وتقوية صحة الشعب، لأن الصحة يجب أن تكون طبيعية. ومثل هذه المقاومة الفطرية تُمِدُّ الفرْدَ بقوة وشجاعة لا يتوافران له عندما تتوقف حياته على الأطباء". (كاريل، 2017، ص ص318-319) وهنا يلمز الوضع الذي آلت إليه الحياة العصرية؛ من الانهمام بالتداوي الصناعي وكثرة المستشفيات والتوارد على الأطباء بشكل دوري، هذه الحال لا تخلو من ضغط التكاليف من جهة، وهي بعيدة عن النجاعة التي ينشدها المريض، وربما أدت إلى نتائج عكسية بسبب من الأضرار الجانبية.

3.4 تكيّف العضوية ومسألة البيئة الداخلية والخارجية

من أهم أسباب الوقاية وحتى العلاج ما يُسمى بـ "التكيّف"؛ هذا التكيّف ينقسم إلى قسمين: تكيّف مع المحيط الخارجي (وهو الذي ركّز عليه الطب القديم)؛ حيث لم يكن "الوسط الداخلي" قد أُكتشف بعد، وتكيّف مع المحيط الداخلي للعضوية (وهو الذي ركز عليه الطب الحديث، وكلود برنار على الخصوص)؛ الذي يُعد مكتشفا لهذا النوع من التكيّف، وذلك بعد البحوث التي أقامهما حول الإفراز الداخلي المتمثل في الدم. ويُسمي "كاريل" التكيّف العضوي الداخلي والخارجي بـ "الوظائف التنسيقية"؛ وهي طريقة لبقاء جميع العمليات العضوية والعقلية، وبهذه الطريقة يحتفظ الجسم بوحدته ويبرأ من الأمراض، والتنسيق والتكييف جانب مهمٌّ لا يقل عن التغذية. (إبراهيم، 2015) وهنا يبدو التأثر واضحا بما ابتدعه من قبل مواطنه "كلود برنار"؛ فيما سمّاه "البيئة الداخلية" للعضوية، وعلاقتها بالبيئة الخارجية أو المحيط الذي تحيا فيه العضوية البشرية. (برنارد، 2005، ص ص120-195) ولقد تطرّق "كاريل" إلى معنى الأمراض، وأشار إلى ضرورة الاهتمام بالمناعة

الطبيعية، واستعادة عافية العضوية البشرية انطلاقا من تطبيب طبيعي، وفي المقابل أكد على إساءة استعمال الوظائف التنسيقية في الحضارة العصرية. (إبراهيم، 2015) وهنا يُركز "كاريل" على ضرورة الاهتمام بالبيئة الخارجية على غرار البيئة الداخلية؛ خاصة بعد التطوّر الحاصل في وسائل العيش العصرية، وما وصلت إليه التقنية الحديثة من وجوه النشاط الصناعي والتجاري، وما هو حاصل بسبب ذلك من زيادة التلوث على مستوى البيئة الخارجية، وهذا يستدعي إعادة النظر في المخلّفات التي تُفرزها المصانع والسيارات يوميا، والتأكيد على خطورة ذلك على صحة الإنسان، ومن ثم ضرورة الحد من التلوّث البيئي؛ لأن الهدف في الأخير هو الإنسان وصحته، وليس إقامة التجارب والنجاح في ميدان العلم، العائد على الإنسان بالضرر في الحال أو المآل.

5. خاتمة

في نهاية هذه الورقة يمكن تسجيل النتائج الآتية:

يُعد "ألكسيس كاريل" من العلماء والأطباء الغربيين المتميّزين في القرن العشرين، حيث حاز على جائزة نوبل للطب سنة 1912، ولقي كتابه "الإنسان ذلك المجهول" رواجا منقطع النظير، منذ صدوره العام 1935 إلى اليوم.

- لم يتميّز "كاريل" ببحوثه في تخصصه الطب فحسب؛ بل ربما كانت شهرته وقيمته عند كثير من المفكّرين والعلماء مصدرها أفكاره التي خالفت الكثير من الأفكار الشائعة في زمنه، خاصة ما تعلق بموقفه من الحضارة الغربية عموما، ومن فلسفة الطب والبيولوجيا على الخصوص.
- كانت أفكار "كاريل" متفحصة وناقدة لما آلت إليه الحضارة الغربية الحديثة؛ وذلك لعدة أسباب منها: أن هذه الحضارة العصرية صُنعت دون أدنى مراعاة لطبيعة الإنسان وتعقده، وأن ما وقعت في الحضارة المعاصرة هو اعتبار الإنسان واحدا من كائنات الأرض، ولا بأس بإخضاعه لما يُخضع له سائر الكائنات، ومن ثمّ أهملت

الجوانب الأخرى للإنسان، وهي الأهم من كل جوانبه، والنتيجة أن تقدم الإنسان في جوانبه المادية، وتقهقر في جوانبه العقلية والروحية والأدبية والسياسية والدينية.

- من أهم الأفكار التي جاء بها "كاريل" نفيه للنظرة الاختزالية في علوم الحياة، ونفيه المماثلة بين الظواهر المختلفة؛ فليست الظاهرة الحية مماثلة تماما للظاهرة الجامدة، ومن ثم لا يمكن تطبيق المنهج التجريبي المادي البحت على ظواهر الحياة، وإلا كانت النتائج هزيلة، وفي كثير من الأحيان مُضلّلة، ومن ثم لا يمكن مماثلة الإنسان للحيوان، ولا تعميم نتائج التجارب في الحيوان على الإنسان، بل ولا يمكن تعميم النتائج داخل نوع الإنسان؛ نظرا لوجود التفرد في الظاهرة الإنسانية.
- إن من نتائج النظرة المادية للكون انبهار الغرب الحديث والمعاصر بنتائج العلوم التجريبية في المادة الجامدة، في مقابل الاهتمام المُخجل بعلوم الإنسان، ومن ثم تهميش هذه الأخيرة، والنتيجة لذلك صياغة الحياة العصرية صياغة تلائم المادة الجامدة ولا تلائم المادة الحية، بلْه أن تلائم الإنسان.
- من التوصيات التي يمكن استفادتها من أفكار "كاريل" ضرورة الاهتمام بالإنسان وعلوم الإنسان، قبل الاهتمام بعالم المادة وعلوم المادة والتقنية والنتائج العلمية والتكنولوجية. فهذه الأخيرة رغم ما فتحته للإنسان من عوالم كانت مجهولة، ورغم النتائج الطيبة التي وصلت إليها؛ تمثّلت في التقدم المادي الملحوظ، والرفاه الاجتماعي الذي لا يُنكره إلا جاحد، فإنها همّشت الغاية من كل ذلك وهي سعادة الإنسان، التي لا تقتصر على ما هو مادي فحسب، بل إن للجوانب الميتافزيقية والدينية والنفسية المكانة الأكبر، لإنسان يسعى إلى الأتراكسيا في الحياة الدنيا، والخلود الأبدي في الحياة الأخرى.

6. قائمة المراجع

جميل صليبا. (1982). *المعجم الفلسفي* . بيروت: دار الكتاب اللبناني مكتبة المدرسة،.

amazon.fr. (19 01, 2024). تم الاسترداد من amazon.fr.

dfgf. (fgf). *gdf*. dfg :fdg.

الربيع ميمون. (1980). *نظرية القيم في الفكر المعاصر بين النسبية والمطلقية*. الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.

ألكسيس كاريل. (2017). *الإنسان ذلك المجهول*. (فريد شفيق أسعد، المترجمون) بيروت: شركة دار مكتبة المعارف.

باول فيرابند. (2000). *العلم في المجتمع حر*. (نفادي السيد ، المترجمون) القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة.

برنار برنارد. (2005). *مدخل إلى دراسة الطب التجريبي*. (مراد يوسف ، و سلطان حمد الله ، المترجمون) القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة.

حسام العيسوي إبراهيم. (23 09, 2015). *دراسة عن كتاب: الإنسان ذلك المجهول– ألكسيس كاريل*. تاريخ الاسترداد 10 01, 2024، من شبكة الألوكة: alukah.net

عبد الفتاح الديدي. (12 05, 2015). *ألكسيس كاريل*. تم الاسترداد من مجلة الرسالة: ar.wikisource.org

مالك بن نبي. (2000). *الظاهرة القرآنية*. (شاهين عبد الصبور، المترجمون) بيروت،: دار الفكر المعاصر.

مُجمّع اللغة العربية بجمهورية مصر العربية. (1983).

مراد وهبة، و و آخرون. (1971). *المعجم الفلسفي*. القاهرة: دار الثقافة الجديدة.

هنري برغسون. (1981). *التطوّر المبدع*. (صليبا جميل ، المحرر) بيروت: للجنة اللبنانية لترجمة الروائع.

يمنى طريف الخولي. (ديسمبر 2000). *فلسفة العلم في القرن العشرين* (الإصدار 264). الكويت: سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب.